

مقاربة أولية حول "الفلسفة والصحراء"

A Primary Approach to "Philosophy and the Desert"

نور الدين رحموني¹

¹ جامعة باتنة 1 (الجزائر)، noureddine.rahmouni@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2026/04/14

تاريخ الإرسال: 2026/01/30

ملخص:

نعالج في هذه المقالة مقاربتنا الأولية حول موضوع الفلسفة والصحراء، والذي من خلاله نحاول أن نستقرئ البعد الفلسفي للممارسات اليومية للفرد في الفضاء الصحراوي، من خلال الوقوف على أهم معالم حياته الخاصة والعامة. ومنه نبين كيف يمكن أن نقف على تفرد الإنسان في الفضاء الصحراوي، وفي أنه يمكن الحديث عن أثره الفلسفي العملي أو حتى النظري. من خلال وقوفنا على مفهوم الفلسفة والصحراء وكذا تحقق بعض المفاهيم الفلسفية في الفضاء الصحراوي كالعيش المشترك، التسامح، القيم، التربية... وكذا بعض المظاهر الفلسفية، توصلنا إلى أن: هذا الفضاء كان معيناً على تفرد الإنسان الصحراوي، كما أنه يمكن الحديث عن فلسفة عملية خاصة بالفرد في المجتمع الصحراوي، وهي تشكل قاعدة أولية وأساسية في بناء رؤية أولية حول موضوع الفلسفة والصحراء.

كلمات مفتاحية: فلسفة؛ صحراء؛ مقاربة؛

Abstract:

In this article, we discuss our initial approach to the topic of philosophy and the desert, through which we attempt to discern the philosophical dimension of an individual's daily practices in the desert environment by examining the main aspects of their private and public life. From this, we show how one can observe the uniqueness of a person in the desert space, and how it is possible to discuss their philosophical impact, whether practical or even theoretical.

By examining the concept of philosophy and the desert, as well as the realization of certain philosophical concepts in the desert environment such as coexistence, tolerance, values, education... and some philosophical manifestations, we have concluded that this environment has been a resource for the uniqueness of the desert dweller. Moreover, it is possible to discuss a practical philosophy specific to an individual within desert society, which forms a primary and fundamental basis for building an initial perspective on the topic of philosophy and the desert.

Keywords: Approach; Philosophy; Desert.

* المؤلف المرسل.

1- مقدمة

نعتبر الفلسفة من بين المواضيع المسكوت عنها علناً في الفضاء الصحراوي؛ لدى الباحثين والمختصين من جهة ولدى ساكنة الصحراء كأفراد من جهة أخرى. غير أن هذا الصمت واقع في التباين، إذ صمت الباحثين والمتخصصين مرده إلى أن سهامهم متجهة في اتجاهات أخرى، أما صمت الساكنة فمرده إلى شيئين، الأول هو الجهل بالفلسفة النظرية، والثاني الثاني رحابة الصدر وتقبل كل جديد شريطة ألا يخرج عن كل معرفي تأملي تجريدي تجريبي .

نحاول أن نحلل في هذا البحث موضوع الفلسفة والصحراء، قصد الوصول من خلاله إلى صورة فلسفية مكتملة للفضاء الصحراوي. وهذا انطلاقاً من الفضاء الصحراوي الجزائري، فإذا تلاقت مخرجات ما وصلنا إليه مع فضاءات صحاري أخرى، فأن ذاك وقع الفضاء الصحراوية عموماً. أما إن اختلفت عما سواها من مخرجات لبيئات صحراوية أخرى، فذاك وقع خصوصية البيئة الصحراوية الجزائرية.

ومنه نتساءل: هل يمكن الحديث عن فلسفة صحراوية، انطلاقاً من البيئة والمخلف الراسخ للفضاء الصحراوي؟

كوني أنبض بأصول صحراوية، وحصرنا لأفق الكتابة في هذا الموضوع، سنقف على ثلاث لحظات نحاول من خلالها أن نبرز مقاربتنا المبدئية عن الفلسفة والصحراء:

2- لحظة تأمل: تأمل موضوع الفلسفة والصحراء:

إن ارتباط الفلسفة الأكاديمية بالصحراء لهو أمر نتج عن الصمت حولها -على الأقل في الأوساط الأكاديمية - وإننا هاهنا لا نقتصر على فهم دور الواو في الربط بين المفهومين، وإنما نستشف التفاعل الموجود بين الفلسفة من جهة والصحراء من جهة أخرى كفضاء يمكنه أن يؤطر فعل التفلسف، كما يمكن للفلسفة أن تجعل الصحراء موضوع لها.

يصعب ضبط تعريف جامع مانع للفلسفة، ولهذا نجد المفكرون والفلاسفة قد اختلفوا في ضبط تعريف واحد لها. لذلك سنطبقها في دلالتها اللغوية عن محبة الحكمة، درء لكل اختلاف. بينما الصحراء فلا نكاد نجد أي تعارض بين اثنين في أن الصحراء هي تلك الأرض القفار (الأرض الخالية من الماء والكلأ والناس)، تلك الأرض الرملية القاحلة القليلة المطر والنبات، إن لم نقل منعدمة... وكل ما يصب في هذا المعنى.

لقد لقيت الصحراء الجزائرية اهتمام كبير من قبل الرحالة والمستكشفين والمستطلعين من مختلف المشارب (انثروبولوجيين، أمثال ابن خلدون، إزابيل إبراهيم، رونييه كاييه René Caille، شارل دي فوكو، مولود معمري... وكان أغلب هذه الدراسات تاريخية أنثروبولوجية أدبية، علمية، تاريخية... إلا أن ما افتقده ويفتقده هذا الفضاء هو البعد الفلسفي الذي يمكن أن يستشف من

الحياة والممارسة اليومية لساكنة الصحراء، وكذلك من الأثر الذي يتركه هذا الفضاء في نفوس الساكنة.

ردا على إمكانية طرح السؤال المشروع التالي: هل ثمة فلسفة في الفضاء الصحراوي؟ نقول إن الفلسفة بطبيعتها لا تستثني أي كان ولا تنتقي الأماكن (فضاء)، ولا يمكن لأي أحد أن ينفي وجودها عند أجناس وأعراق، ويثبتها لأجناس وأعراق أخرى. فهي تعيش وتتعايش مع كل الأوساط والفضاءات؛ مدنية وحضرية وبدوية وهضابية وحتى صحراوية... بل لربما تتلون وفق الفضاءات تلك، وهو ما يمكن أن نعتبره وقع الفضاء والبيئة على المعطى الفلسفي. من ذاك نجد الفلسفة في هذا الفضاء الصحراوي -إن لم نقل إنها تلازم - هي أقرب إلى الفعل والعمل والممارسة اليومية... فلا تكاد تبدوا للعامين عن فعل التفلسف على أنها فلسفة، فيرونها محض ممارسات يومية خالية من أي وجه فلسفي. وهو ما فعلته المركزية الغربية مع المعطى الفلسفي العملي الشرقي.

بما تتميز البيئة الصحراوية عن غيرها من البيئات والفضاءات؟ الصحراء بطبيعتها ناعمة، هادئة، رحيبة، وشاسعة، بسيطة، منبسطة، مشمسة، موحشة... إذ تعين هذه الخصائص والمميزات في هذا الفضاء الصحراوي، الإنسان على حسن التلقي، وتدفع النفوس إلى التأمل. ففي ظل هذه الخصائص يتوفر الإطار العام لصفاء الذهن ونقاءه من تداخل الموضوعات، والتأثر بأطر الحياة المليئة بكل ما هو مادي صناعي؛ كما هو الحال في فضاءات أخرى ينتفي فيها الهدوء، البساطة...

أما مجتمع الصحراء فهو القليل الهادئ الصبور المتماسك في كيانه وفي مخرجاته. والذي لا نجده مبدئيا يرتبط بالفلسفة إلا في امتلاكه الاستعداد والقابلية لتقبلها، وكذا امتلاكه لحمولة من المفاهيم الروحانية ومن الصور التجريدية المعينة على كل تفكير فلسفي. فالفرد في هذا المجتمع ارتبط بالتكوين الديني والأخلاقي الذي في الغالب نابع من التجارب الصوفية، كما أن البيئة العامة وعدم توفرها على صور حية لبعض المعطيات الحية، أمر يحمل الفرد على أعمال الخيال وممارسة التجريد منذ نعومة أظافره، مثل (تخيله للأنهار، البحار، الثلوج، تساقط أوراق الأشجار...)

إن الصحراء بمعطياتها وخصوصيتها، تشكل فضاء مثالي لممارسة فعل التفلسف، وهو ما يعني صعوبة الوصول إلى فلسفة نظرية خاصة بساكنة هذا الفضاء، ومع ذلك فإنها فلسفة تتجلى من خلال نظرة ساكنتها للأشياء والموضوعات بشكل أكثر شمولية وعمقا؛ وهنا نجد أن الفرد في هذا الفضاء يساير معيشته وحياته اليومية وفق فلسفة خاصة، تختلف في الكثير من تمفصلاتها عما يفعله الفرد في بيئات وفضاءات أخرى.

3- لحظة المفهوم: تجلي المفهوم الفلسفي في الفضاء الصحراوي.

نتساءل هاهنا: كيف تتجسد بعض المفاهيم الفلسفية في الفضاء الصحراوي؟
إن فعل التفلسف لدى الفرد الصحراوي، مبني بالأساس على مجموعة من المنطلقات العرفية والدينية والاجتماعية والثقافية والعلمية والبيئية... لتتشكل فلسفة خاصة بهذا الفرد، تجعله يساير بها حياته الفردية والجماعية. لذلك أثرنا أن نقف على بعض المفاهيم الفلسفية المتجذرة في الفضاء الصحراوي:
- العيش المشترك :

لطالما كانت المجتمعات الصحراوية في الجزائر منفتحة على مناطق أخرى خارج الجزائر مثل " مالي والنيجر وموريتانيا من ناحية الجنوب، والصحراء الغربية والمملكة المغربية من الناحية الغربية، ... وعلى ليبيا وجزء من تونس في الناحية الشرقية، وهو ما جعلها تشكل مزيجا من الاجناس والأعراق البشرية واللهجات" (طراش و جينيفاريانكو، 2016، صفحة 19)
هذا الانفتاح سمح بتنقل بعض من مختلف ساكنة المناطق للعيش في الصحراء. وبالفعل تمكنوا من الاندماج في المجتمعات الصحراوية، وهو ما يعكس فلسفة الفرد في هذه المجتمعات في العيش المشترك، بعيدا عن كل انغلاق نحو الذات تحت أي طائل عرقي أو لغوي أو ثقافي أو حتى ديني.

لهذا نجد المجتمعات الصحراوية مزيج من الأعراق والثقافات واللغات ولزمن ليس بالبعيد مزيج من الديانات. وقد نتج عن ذلك أن ممارسات وعادات وتقاليد المجتمعات لا ترتبط فقط بالإسلام، بل هي تشكل مزيجا يعود الكثير منها إلى ما قبل الإسلام، مثل أهليل (رقصة شعبية في منطقة قورارة)، أو الفقارة (نظام سقي فلاحية)
يتلاق ويتعاون كل افراد المجتمع في السلوك - الحفوض - الزيارات - الأعراس - الزيانة (الختان) - الجنازات - السلكات (الوضائم) - العقيقة - الفاتحة.... وهو ما قد يشكل صعوبة في ترتيب موعد مناسبة ما، فلا ينبغي تلاقيها مع مناسبة أخرى ، وذلك لأن جميع ساكنة القصر مدعوون لإحياء المناسبة.

فما يلاحظه الزائر للمنطقة هو توحيد النمط العام لأطباق المأكولات في المناسبات فلا فرق بين غني او فقير. ويلاحظ كذلك أن الجميع يسكنون معا إما داخل قصور أو قصبات طينية: بهدف اغلاقها في وجه الغزاة على منوال "قصور بوسمغون وتيوت في منطقة البيض، وأيضا القنادسة وموغل في منطقة الساور (ولاية بشار) وكذا قصر تمنطيط وتماسخت وتاخيفت وتازولت بمنطقة توات (ولاية أدرار) وقصر تماسين بولاية ورقلة وقصبة باجودة بعين صالح، وقصور غرداية (بنورة. بني يزجن. مليكة. العطف. بريان. القرارة...) وأيضا قصر تمرنة القديمة بمنطقة وادي رينغ (ولاية وادي سوف)" (طراش و جينيفاريانكو، 2016، صفحة 36)

لهذه القصور أو القصبات شكل عام يجمعها فهي "تأخذ شكلا مربعا أو مستطيلا، مع أبراج مربعة الزوايا، مرتبطة بجدران تكون الواجبة، أما السور الخارجي المخصص للتحصين والدفاع، فهو عالي في مستوى طبقتين أو ثلاث طبقات، محاط بخنادق من الخارج، مشكلة بذلك ما يشبه القلاع الإقلعية الأوروبية في العصور الوسطى، ولو أنها بدائية وأقل جمالا وتحصينا"(محفوظ، 2016، الصفحات 94-95).

وإما أن يعيش الفرد الصحراوي في مجموعة خيام، للاحتماء بالآخر والوقوف في وجه الأعداء بشرا كانوا أو حيوانات، أو للقاء نفس المصير.

في المناطق الرملية يتحد الساكنة لصناعة آفراق (سد من سعف النخيل الجاف) لسد الرمال عن البيوت أو عن المحاصيل ويشارك في صناعته الجميع رجال ونساء عمال وفنانون وأعيان

يشارك ساكنة الصحراء بمختلف ثقافتهم وأعراقهم في الجوهر العام للباس؛ الواقي من الشمس صيفا والبرد شتاءً؛ فيلبس الرجل في مختلف المناطق العباءة والشاش أو القشبية أو البرنوس...، وتلبس المرأة الحايك أو الإزار أو التيسغنس أو أخباي... باعتباره ألبسة تقي من الحر وتستركل البدن. وتبقى بعض التفاصيل الدقيقة هي التي تميز نفس اللباس عند مجتمع دون غيره، وعند عرق وثقافة دون غيرهما...

كما أن الفرد الصحراوي متمسك بدينه وبعاداته وتقاليده، ومنفتح على الثقافات والعادات والمواضيع الممكنة.

لذلك نجد في رقصة أهليل مثلا أن "الأشخاص الذين تجمعهم صلة قرابة مباشرة لا يمكنهم حضور نفس الجلسة، كما يلاحظ بخصوص المنحى الديني حضور الجنسين معا وهو أمر لا يزال قائما" (محفوظ، 2016، صفحة 10)

التسامح:

من مميزات المجتمعات الصحراوية اختلاف الأعراق واللهجات والعادات والثقافات، ولوقت ليس بالبعيد نسبيا يمكننا أن نتحدث عن اختلاف الأديان، وهو ما يعكس فلسفة الفرد في هذا المجتمع؛ وهو التسامح الذي يحظى به الفرد تجاه الآخر بمختلف عاداته وتقاليده.

هذا التسامح هو متجذر في شخصية الفرد الصحراوي، فهو دائما ما كان متعايش مع بيئته القاسية، ويبحث عن حلول تجنبه الهلاك، من خلال البحث عن طرق لمقاومة الرمال أو حرارة الشمس أو العطش... ولم يكن الإنسان في الفضاء الصحراوي يصارع بيئته، بل كان في سلم يحاول أن يتفلسف من قسوة وقهر الطبيعة.

وهو ما يجعلنا نقول: إن التسامح في شخصية الفرد الصحراوي هي قيمة متجذرة فيه، انتقل من استخدامها في بيئته إلى استخدامها في تعاطيه مع الآخر.

لذلك نجده قد أوجد آفراق، ولبس الألوان الفاتحة في الغالب، وبحث عن الأماكن الرطبة للعيش (الواحات)، كما أوجد طريقة للحصول على الماء بشكل مستمر (الفقارة)، وهي طريقة تتلائم مع البيئة وتعبر في وقتها عن مستوى عالي من المعرفة بالموازين والأكيال ومستويات وأعماق الأتربة والصخور والمياه ... ويجري الماء في قنوات جوفية تربط بين الآبار، نزولا إلى مستوى الماء وتجنباً لحرارة الجو ورمال الصحراء، التي قد تحول دون وصول المياه إلى البساتين، إما بالانسداد أو التبخر.

من مظاهر التسامح في المجتمعات الصحراوية هو اندثار بعض اللهجات من بعض المناطق، مثل اللهجة الزناتية التي انحصرت في التعاملات اليومية لساكنة منطقة توات (أدرار)، لكن ساكنة هذه المنطقة لا يزالون يحتفظون بمسميات وأوصاف الكثير من الأشياء باللسان الزناتي. ولم يكن هذا التحول إلى اللغة العربية إلا نتيجة من نتائج التسامح تجاه الإسلام واللغة العربية.

يلاحظ أي زائر للمجتمعات الصحراوية أن المجتمع يسوده السلم والأمن، ويتبادل جميع أطراف المجتمع التحايا فيما بينها؛ صغار وكبار رجال ونساء شبان، ولا يستثنى من التحية حتى الغرباء. وتحيتهم (السلام عليكم - خير عليكم - صباح الخير - تصبحون على خير) بين الجميع ذكور وإناث صغار وكبار، تعرف أو لا تعرف.

من مظاهر التسامح كذلك، عدم التكلف في الأفراح والأعراس والمناسبات، فلوقت غير بعيد كانت الأبنية من طين والافرشة رمال ناعمة، حتى أن الرجل يتزوج ولا يملك فراش بسيط، فيستأجره ليقضي الأيام الأولى من زفافه ثم يعيده لأصحابه. ولا يجد في هذا لوم من العروس أو من أهلها أو من المجتمع.

وفي منطقة جانت بولاية إليزي نجد أن احتفال السببية هو صورة راقية من صور التسامح في المجتمعات: فالسببية هو احتفال سنوي عند توارق المنطقة "وعادة ما تعبر هذه المناسبة عند سكان (جانت) عن اليوم الذي أشيع فيه السلم بين سكان القصرين العتيقين (أزلواز) و (المها)" (طراش و جينيفاريانكو، 2016، صفحة 38)

ولا يقتصر التسامح على فئة من المجتمع، بل يشمل كل الأطياف، إلى درجة أننا نجد المتدين لم يمنع المجتمع من ممارسة بعض طبوع الفولكلور (الرقص، الغناء...). بل أكثر من ذلك؛ نجده قد ساهم في إثراء طابع فلكلوري ما، وهو نلمحه حين نستمع إلى الأشعار المستعملة في (الطبل أو في أهليل...) فأصبحت القصائد في هذه الطبوع منفتحة على الديني بعد أن كانت تعني بما هو دنيوي.

بالرغم من بعض التفسيرات الغير مقنعة، والتي تعتقد بأن "الأهليل حاليا هو نتيجة امتزاج نمطين منفصلين سابقا: النمط الأول هو (التهليل) وهي أغاني رجال الدين يوحّدون بها الله

(التوحيد) أما الثاني (الإهوال) يعبر فيه القصوريون في آن واحد عن عذاب الحب وعن العلاقات القاسية بين القصوريين والنزاعات بين الصفيين" (بليل، 2021، الصفحات 18-19)

حجتنا في عدم اقتناعنا بهذا الطرح هو أن الفنون الشعبية في المجتمعات الصحراوية موجودة قبل الإسلام، وكانت تعنى بما هو دنيوي، ولكن بمجيء الإسلام تحولت هذه الفنون إلى وجه من أوجه الأزواجية التي تجسد الديني والدنيوي. فأضفى رجال الدين صبغتهم على هذه الفنون وتحول شق كبير فيها إلى جانب التربية الروحية للفرد الصحراوي، وربما باب من أبواب الممارسة الدينية التي يرتجى منها أجر.

لهذا نقول إن تسامح الأفراد في المجتمعات الصحراوية نابع من قوة وحضور وأصالة موروثه الثقافي، وهو ما جعلهم ينجحون في احتواء رجال الدين وحملهم على الانغماس في الطبوع الفلكلورية، تماما كما نجح المجتمع الزناتي في قبول "رجال الدين ودمجهم بتوجهاتهم وممارساتهم الدينية، وبالمقابل نجح في استقطابهم وحملهم على إعادة انتاج الأهليل من خلال إعطائه نفسا وطابعا جديدا من خلال المناحي الدينية والصوفية التي يحملونها" (بليل، 2021، صفحة 10)

كما أن للجلسات الفنية متنوعة الجنس؛ رجال ونساء تنم عن روح التسامح الموجودة بين الجنسين كما تنم عن الاندماج والانسجام وتنسيق الفئات (أفراد ومجتمعات).

- التصوف :

لوقت ليس بالبعيد اعتمد ساكنة الصحراء في تعلمهم أمور دينهم ودنياهم بشكل أساسي على المساجد والزوايا، فلم يُجد كل الساكنة القراءة والكتابة، واعتمدوا في تعلمهم وتلقمهم على ما يسمعون في مختلف المجالس، وهنا يمكننا الحديث عن التدين الشفهي، وبالتالي التصوف الشفهي، فيعرف الفرد أمور دينه ودنياه بل يقرأ القرآن مع حلقات القراءة الجماعية (السلكة) معتمدا على ما تلقاه مشافهة.

أن يأخذ الفرد دينه أو سبيل ممارسته التصوف عن الطلبة (الأئمة) أو شيوخ الزوايا مشافهة (التدين الشفهي - التصوف الشفهي)، رغم أنه لا يتقن القراءة ولا الكتابة، فهذا يعني في الغالب ألا يصبر الفرد أغوار المعرفة، وتبقى معارفه الدينية والصوفية سطحية.

أسس الأئمة والشيوخ والمتصوفة؛ عدد كبير من الزوايا، وهي التي تعنى بتحفيظ القرآن والأحاديث والفقه والعلوم الدينية الأخرى... وهي على منوال بعض المدارس الأكاديمية لها نظامها الخاص، وتشترط للدخول إليها شروط معينة.

إلا أن هدف هذه الزوايا الأساسي هو تكوين الطلبة (الأئمة) والذين بدورهم يساهمون في نشر الدين وتعليمه للأجيال. فضلا عن نشر الطريقة الصوفية الخاصة بالزاوية. لذلك نجد أن أغلب أفراد المجتمعات الصحراوية يمارسون التصوف ولا يعرفون إلى أي الطرق الصوفية ينتمون.

إن الجو العام الذي يوفره الفضاء الصحراوي، من صفاء ونقاء وهدوء وانحصار لفرط وفرة الماديات، واحتكاك مباشر مع الظروف والمظاهر الكونية... يشكل المعين الأساسي على ممارسة التجارب الذاتية أو التصوف في أرقى صوره.

يكاد يجهل أغلب ساكنة المجتمعات الصحراوية أنهم أشد ارتباطا بالصوفية، رغم حملهم السبحات والتزامهم الأوراد في المساجد والبيوت بعد كل صلاة. من هذا نجد أن الطرق الصوفية التي تشيع في هذه المجتمع الصحراوي هي: الطريقة الطيبة الجازولية أو الوزانية (طراش و جينيفاريانكو، 2016، صفحة 22)

القيم:

يعتبر الدين في الغالب منبعاً رئيسياً للقيم في المجتمعات الصحراوي، من صدق واحترام وأمانة وكرم ...، إلا أنه بالإضافة الى ذلك تدخل بعض الطبوع الفلكلورية من أشعار وأغاني وخرافات وحكايات شعبية: كمعين على غرس مجموعة من القيم وعلى رسم صورة معينة أو تصور لشيء ما، قصد إضفاء قيمة ثابتة متوارثة لا يشوبها التغيير.

من ذلك فان خرافة كمثل تينيسي (والتي تختلف في بعض تفاصيلها من منطقة إلى أخرى) لمي معين على رسم صورة مقبلة على الخيانة، وهي تغرس في المقابل من هذا قيم الوفاء في نفس المحب. كون تينيسي هي امرأة محبة وفية، لم تتمكن من الزواج بحبيبها، أو أن حبيبها فارقها ليتزوج أخرى، ونتيجة هذا تتحول إلى كائن متوحش، تحافظ في شكلها العام على شكل المرأة إلا أن شعرها يطول بشكل لافت وتطول أظافرها التي تستعملها لقتل الرجال. وفي الآن نفسه رغم وحشيتها إلا أنها تحب الموسيقى والرقص.

كما تسهم الحكاية والخرافة في المجتمع الصحراوي في تكوين الاحترام العميق للأولياء والمشايخ، فيروي المجتمع للأجيال الكثير من الحكايات والخرافات والكرامات والخوارق التي تضفي قدسية على أشخاص وحتى بعد موتهم، من ذلك ما يروى عن ضريح الرقاني بمنطقة رقان في أدرار، أن هناك سلسلة حديدية في الضريح للتبرك معلقة في السقف تقرب ممن رضي عنه صاحب الضريح وتبتعد عمن سخط عليه، وفي هذا حث الأفراد على الالتزام بالقيم العامة من إجلال للأولياء والصالحين... وكذلك ما يروى عن أبانديلي (صاحب ضريح بمنطقة تيلولين - أدرار) في أنه يأتي في المنام لمن كلف بإيصال الصدقة ولم يوصلها فيخنقه، وفي هذا حث على الصدق والأمانة فضلا عن الاحترام الذي يجب أن يوليه الفرد للميت.

تعتبر التربية في المجتمع الصحراوي هم يتشاركه جميع الأطراف، ولهذا ثلاثة مستويات: الأسرة والمجتمع والطالب (الشيخ) وأكثر من ذلك قد يرجع دور الطالب في التنشئة من قبل الأسرة والمجتمع، فتصير له السلطة المطلقة في تربيته وتوجيه شؤون النشأ: كالسهر على تعليمهم، وتكليفهم ببعض المهام، وتعليمهم الآداب العامة والخاصة.

بالإضافة الى الفضاء الصحراوي ودوره في تنشئة الفرد الصحراوي، نجد أن خصوصية التربية والتكوين الذين يلقيهما الفرد في المجتمع يجعلانه أكثر تعود وأكثر فهم للمواضيع الغيبية والتجريدية، من خلال عيش المتاح وتخيل كل غريب مفقود في هذه البيئة. إضافة إلى هذا، فإن الارتباط الوثيق بالدين يجعل الفرد منذ نعومة أظافره يتلقى تكويناً دينياً متأمل، محمل بكل ما هو غيبي تأملي تجريدي، وهو ما سيكون معينا له على تقبل كل تأمل وتفكير وتفلسف، وعلى فهمه كذلك.

وتلعب الأحاجي التي ترونها الجدات للأبناء بعد غروب الشمس في حلقة حول نار الحطب التي تطبخ قدر العشاء أو الحساء في غرس مجموعة قيمة معينة مقصودة وراقية، وفي تربية النفوس على التعامل مع المجرد، وهي ممارسة تجعل من خيال الفرد في هذا الفضاء أكثر اتساعاً.

3- لحظة اعتراف: الفضاء الصحراوي والريادة.

أ- الفاعلون في البيئة الصحراوية :

لن يرضى الفرد الصحراوي بأن يكون الدور الفاعل في المجتمع لغير العقلاء، العلماء وشيوخ الزوايا والأئمة (الطلبة) كمصلحين وموجهين وأصحاب الرأي والمشورة. حيث لهم اليد العليا في كل صغيرة وكبيرة تعنى بحياة الفرد أو الجماعية... وهو اعتراف صريح بكل قامة فكرية معرفية ودينية.

ب- المعارف والمكتبات :

يحوز أغلب الفاعلون في المجتمع الصحراوي على مكتبات تجمع كتب من مختلف العلوم والمعارف، مكنتهم من اكتساب معارفهم أولاً، ومن المساهمة في التكوين العلمي والمعرفي والديني للفرد الصحراوي، وكذا تسيير شؤون العامة... ولا يزال أحفاد هؤلاء يحتفظون بالمخطوطات التي تركها أجدادهم في مكتبات عائلية مثل مكتبات وادي ميزاب (خزانة بني يزقن ، خزانة العطف) مكتبات أدرار (تعتبر أغنى المناطق بالمخطوطات، وتتوزع عبر مختلف أقاليمها، ففي قورارة نجد خزانة سيدي محمد بن عبد الرحمان، وخزانة بن عبد الكبير... أما في توات فنجد خزانة زاوية الشيخ بن عبد الكريم المغيلي، خزانة زاوية أمحمد الكنتي، خزانة تمنطيط، خزانة بودة... أما في منطقة تيديكلت فنجد خزائن برج باجي مختار وخزائن كل من أولف وعين صالح...)، مكتبات إليزي وجانت التي تحوزها العوائل التارقية، ومكتبات ورقلة وتوقرت وغيرها من مكتبات المناطق الصحراوية... دون أن نغفل المركز الوطني للمخطوطات الموجود في ولاية أدرار.

هل يمكن الحديث عن فلسفة صحراوية أكاديمية ؟

لم تلقى الممارسة ذات البعد الفلسفي في الفضاء الصحراوي ذلك الاهتمام الكبير الذي يدخلها أسوار الجامعة، من خلال التحليل والدراسة والنقد...، رغم أن هذا الفضاء كان خزاناً يزود مختلف أقسام الفلسفة في الجزائر. إلا أنه لا يمكن الحديث عن فلسفة صحراوية أكاديمية.

لكن في القريب من هذا نجد أن بعض الشخصيات الفلسفية البارزة في الجزائر والتي استطاعت أن تثبت حضورها الفلسفي، تمتلك جذورا وتكوينًا في بيئة صحراوية، دون أن نغفل الجانب العملي من فلسفة الفرد الصحراوي والتي تجسدت في شخصيات فاعلة عديدة، ونجد هذه الشخصيات قد استفادت من جذورها وخصائص الفضاء الصحراوي.

إن هذا الفضاء الصحراوي كان لسكانه باعثًا ومعينًا على نحت طريق التميز والابداع، ومن بين هذه الشخصيات غير الأكاديمية والأكاديمية نذكر:

محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ولد "في مدينة مغيلة التابعة لبلدية ودائرة مغيلة ولاية تيارت حاليا، وذلك سنة 831 هـ الموافق لسنة 1427" (مبروك، 2006، صفحة 27) وهو عالم وفقه ومصلح اجتماعي، كتب في السياسة والعقيدة والفقه، وقد كتب إلى السيوطي نص قصيدة يدافع فيها عن المنطق، وفضلا عن ذلك تناول في كتابه لب الباب في رد الفكر إلى الصواب؛ أصول المنطق، والتصورات، والتصديقات. أنظر (العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي، 2006).

محمد بلكبير 1911 – 2000، قطب من أقطاب التصوف والتعليم في الجزائر حيث ولد واستقر في منطقة توات بجنوب الجزائر، "كان الشيخ محمد بلكبير بن طينة العلماء الكبار، زاهدا في الفانية عاقد العزم على تأدية رسالته العلمية" (لمحرزي، 2021، صفحة 5) تخرج على يده آلاف الأئمة ومدرسي القرآن. حيث لم يترك نصوص مكتوبة، بل كان منهجه عملي تلقيني.

عبد الرحمن بن محمد الصغير الأخضر: ولد في 920-953 هـ / 1512-1545 هو عالم ومتصوف وباحث ومحقق من أشهر أعماله "السلم المرونق" وهو نظم مختصر في المنطق يسهل على المتعلم حصر واستحضار وتلقيين قواعد المنطق. أظهر عبد الرحمن الأخضر علامات النبوغ في سن مبكرة، إذ في سبعة عشرة سنة أنجز "منظومة (السراج) في الفلك، كما أنجز منظومة ازدهار المطالب في الإسطرلاب" (الدراجي، 2009، صفحة 15) وغيرها كثير في مختلف العلوم.

كريع النهاني ولد في أولاد جلال (بسكرة) سنة 1917 وتوفي في 09 نوفمبر 2004 درس بالسربون وقد أشرف عليه غاستون باشلار في موضوع الخير والشر في القرآن. جمع كريع النهاني بين اشتغاله في الفلسفة والأدب والنقد الاجتماعي، حيث ترك العديد من المؤلفات الرصينة.

بوعمران الشيخ (1924 – 12 ماي 2016) من مواليد عين الذهب بالبيض، حيث درس في البيض ثم في وهران ثم انتقل الجزائر العاصمة ثم إلى السربون بفرنسا. وقد كان بوعمران الشيخ فيلسوف موسوعي معتدل في طرحه. إذ نجده قد اشتغل في المنطق والفلسفة الإسلامية وعلم الكلام... وقد ترك مؤلفات ومقالات في هذه المجالات.

البخاري حمانة – قمار (وادي سوف) (22 فيفري 1937 – 05 ديسمبر 2018)

البخاري حمانة: (ولد في 1937/02/22 وتوفي في 2018/12/05) ابن مدينة قمار (ولاية الوادي) درس بجامع الزينونة، ثم بالقاهرة طالبا ومناضلا في جبهة التحرير الوطني ثم موظفا في

السفارة الجزائرية بالقاهرة، أنذاك احتك وتعرف على شخصيات عديدة مثل جمال عبد الناصر، وياسر عرفات... يعتبر مؤسس لقسم الفلسفة بجامعة وهران سنة 1983. (بوعرفة، 2018) دافع بشراسة عن الفلسفة وقدم رؤية فلسفية متفردة تمثلت في فلسفة الثورة الجزائرية. وكتابه تأملات في الدنيا والدين. وغيرها من المؤلفات والمقالات...

علي مراد (ولد في 21 أكتوبر 1930 بالأغواط - وتوفي في 23 ماي 2017) من مدينة الأغواط، يعد من الأقلام الرصينة في الفكر الإسلامي، ولم يكتفي بهذا بل (حاول التقريب ما بين الديانات في فرنسا، كما انخرط في العمل الجماعي) (صاري، 2017، صفحة 343) من بين مؤلفاته الحركة الإصلاحية في الجزائر (1925 - 1940) "الإسلام المعاصر" (- 2017) وقد عرف هذا المؤلف رواجًا كبيرًا وأعيد طبعه مرات عديدة، وترجم إلى عدة لغات كالإنجليزية والعربية والتركية والإسبانية واليونانية والرومانية والسويدية. كتابه "الحركة الإصلاحية في الجزائر بين 1925 و1940" اذ يعتبر أهم مرجع في الإصلاح الفكري حول الإسلام.

4- خاتمة:

للفضاء الصحراوي وقع ودور كبير في ترقية الحس والابداع الفلسفي من خلال تربية النفوس على مخالجة كل ما هو تجريدي تأملي. كما أن الأطر العامة للعيش والمواضيع التي تطرح في هذا الفضاء؛ هي موضوعات خصبة تدعوا الى التأمل في مرحلة أولى، وإلى الرقي والتعامل المحض مع ما هو مجرد في مرحلة ثانية، وهو باب واسع تستغله مختلف الممارسات والسلوكيات والشعائر في النهوض والتعمق في ذواتها، وما يشدنا أكثرها هنا هي تلك المخرجات الفلسفية التي نتجت عن هذه التجارب الحياتية، فردية وجماعية، وحتى اديولوجية.

ولا أدل على هذا أكثر من الابداعات التي قدمها مفكرون وفلاسفة عاشوا في هذا الفضاء الصحراوي أو حتى تلك الاضافات التي قدمها بعض المشتغلون بالفلسفة في الأوساط الأكاديمية.

5- قائمة المراجع:

1. العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلى الجزائري. (2006). لب الباب في رد الفكر الى الصواب، تحقيق أبو بكر بلقاسم ضيف الجزائري. (الإصدار 1). دار ابن حزم.
2. بوزيانى الدراجي. (2009). عبد الرحمان الأخضرى، العالم الصوفي الذي تفوق في عصره. بلاد للطباعة.
3. بوعرفة، ع. ا. (2018). ومضات من سيرة فيلسوف الثورة.. أد. البخاري حمانة .
4. écupéré sur مدونة أ.د بوعرفة عبد القادر : <https://bouarfah.blogspot.com/2018/12/blog-post.html>

5. رشيد بليل. (2021). زنتايو قورارا، أولياؤها والأهليل. دفاتر مجلة إنسانيات - الصحراء مجتمعات وثقافات، 06، 20-09.
6. رموم محفوظ. (2016). توات الجغرافيا والمصطلح من خلال المونوغرافيا المحلية والأجنبية. مجلة الحوار الفكري، 11.
7. سيدي محمد طراش، و جينيفاريانكو. (2016). ملتقى الطرق الصحراوية. وهران: منشورات CRASC.
8. صاري، أ. (2017). علي مراد (1930 – 2017) الباحث والمفكر الإسلامي المجهول، ، المجلد 16، العدد 02، ص 343. مجلة الآداب و العلوم الإنسانية. 16،
9. عبد الرحمان محرز. (2021). الشيخ محمد بلخير مسيرة جهاد وإصلاح في توات بأقصى الجنوب الغربي الجزائري. مجلة الحقيقة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، 20.
10. مقدم مبروك. (2006). الامام محمد بن عبد الكريم المغيلى التلمساني ودوره في تأسيس الامارة الإسلامية بأفريقيا الغربية. وهران: دار الغرب للنشر والتوزيع.